الآفاق البعيدة

رندة حيدر

في انقطار الذاهب من سان باولو الى ميناس جيراس . يلتقي مواطنان لبنانيان جمعتهما الهجرة ، أحدهما وصل البلد حديثا ، والآخر ممن قطعوا شوطا طويلا في حياة الهجرة وخبروا وهم الاغتراب عن قرب وذاقوا طعم الخيبة ومرارة اليأس .

وسرعان ما يتحول لقاء الرجلين الى جلسة احياء للذكريات فيسرد المهاجر القديم تجربته مع تلك البلاد لمواطنه القادم الحديث ، ومعه تبدأ رواية عوض شعبان الاولى « الآفاق البعيدة » (١) .

شغلت مشكلة الهجرة حيزا هاما من تاريخ اللبنانيين بحيث باتت تشكل جزءا من تراثهم وفولكلورهم الشعبي ، وارتبطت الهجرة في أذهان الناس بفكرة البحث عن الثروة التي وحدها تستطيع أن تحمل الحل للعديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عانت منها أجيال ما بعد الحرب العالمية الاولى والثانية .

وكان للنجاح الذي أحرزته أفواج المهاجرين الاولى، اثره الكبير في نفوس مواطنيهم الذين تدافعوا هم أيضا سعيا وراء هذه الابواب البعيدة التي باستطاعتها أن تحقق للمسحوق والضعيف والفقير ، الوجاهة والرفعة والثراء . هذا الى جانب ما كان يمثله الغرب بالنسبة للناس من جذب واغراء لا يقاومان .

غير ان قصة الاغتراب لم تقتصر على هذا وحده ، وانما حملت في حناياها مئات الحكايا حول تجربة الغربة والوحشة والاحساس بالاقتلاع والمهانة ، وهواجس العودة الى الوطن وصورة القرية الهاجعة في البال ، الى ما هنالك من أشياء كثيرا ما حدثنا عنها شعراء المهجر ، وبعض روائيينا أمثال توفيق يوسف عواد ومارون عبود .

في هذا السياق تبدو رواية عوض شعبان صوتا جديدا وشهادة أخرى لحياة المهاجرين في أميركا اللاتينية .

في بداية الرواية يتحدث « جوليو » عن الاسباب التي دفعته الى الهجرة فيقول : « أن اقتني سيارة ، وبيتا محترما . وأرتدي بدلات الجوخ ، وأشتري الكتاب الذي يعجبني ، وأتناول ما لذّ من الطعام ، وأتزوج من المرأة التي أحب ، وأحترف المهنة التي أرغب » ، تلك كانت الاسباب . أما الدافع لاختيار الهجرة كحل ومخرج فكان صورة « أولئك المغامرين الذين هجروا لبنان هربا من وطأة الفاقة والتشرد . وعادوا اليه بعد سنين محملين بالثروات » .

غير ان أوهام الحصول على الثروة ، سرعان ما تتبدد ، ويذوي وهج الحياة الجديدة ، ليطل الوجه الحقيقي لذلك الواقع الجديد ، وجه قاس ، مقيت ، لا يرحم ، خاصة من كان دخيلا عليه .

في مواجهة هذا كله تبدأ احباطات ذلك الانسان الذي رأى في الهجرة تمردا على وضع سقيم وثورة على ظروف حياة لا يرتضيها ، فاذا به يقع في مأزق أكبر وأكثر حدة داخل عالم مقفل لا يقبل الدخلاء عليه ، ومن الصعب على المرء أن يحقق من خلال شقوقه الرمادية الضبابية ولو شيئا من مطامح نفسه . يقول بطل الرواية في وصف مشاعره في اليوم الاول لاغترابه: « وشعرت بأنني منذ الساعة بدأت أضيع في متاهتي

---

(١) « الآفاق البعيدة » : عوض شعبان ، صدر عن دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ .

اللانهائية ... هذا الضياع ... هذا الشعور بالشؤم الابدي » .

وترتسم شخصية بطل الرواية من خلال علاقته بعناصر حياة الاغتراب ، وتبرز محاور أساسية تتنامى من خلالها شخصيته وأحداث حياته وهي : الاصدقاء ، المرأة ، المال ، الذات .

تحتل صورة الاصدقاء مكانا رئيسيا في « الآفاق البعيدة » . والاصدقاء هم : « البياتريس » أو المواطنون الذين جمعتهم الغربة ووحدهم شقاء مهنة البائع المتجول (المسكاتيه) التي كانت ملجأ المتشردين والمتسكعين من أبناء الوطن الذين فشلوا في أن يكونوا من أصحاب الثروات ، فاستسلموا للفقر والحرمان وكأنهما القدر الذي لا مرد له ، وعاشوا على أمل العودة الى الوطن أو تحقيق ضربة تجارية كبرى تستطيع أن تعوض ما فات . غير أن الامكانيتين لم تحدثا ولا لمرة واحدة .

فهد ، وعارف ، ويوسف وآخرون ، أصدقاء يجتمعون ، يثرثرون ويأكلون معا ، يتسامرون ويتعاضدون وقت الحاجة ، غير انهم في النهاية يعيشون الخيبة واليأس . حتى عارف ، وهو أكثرهم شاعرية ومثالية وتفلسفا ، يقع في ورطة تهريب يكاد يذهب ضحيتها . أما الباقون فمشتتون يضيعون العمر هباء نسمن هلوسات نظرية لا صلة لها بحقيقة الحياة التي يحيونها والتي تفور في ادقاع لا قرار له . والمدهش في الامر ان أيا من هؤلاء لا يواجه ذاته يوما ولا يحاول أن يقدم لها حسابا ، كلهم يقرون بفشلهم ، وجميعهم يستسلمون لهذا الفشل بلا اعتراض ، وهكذا يبدو الاصدقاء غطاء وقاية للمهاجر في مواجهته لذاته . والحاجة لوجودهم هي محاولة لاتقاء الحرج الذي لا بد من أن يظهر في مواجهة الذات لنفسها .

اما المرأة فتشكل حدا آخر ذا دلالة ضخمة في حياة هؤلاء الرجال الذين انتقلوا من مجتمع المرأة فيه ملقس من أكثر طقوسه تعقيدا وتحريما ، الى مجتمع آخر مختلف استطاعت فيه المرأة أن تكسر الحرم الاجتماعي من حولها . وباتت حرة في الحديث عن رغبتها وعن جسدها ، وان كانت ما تزال حتى اليوم أسيرة الزواج والحفاظ على تقاليد اجتماعية أخرى متفرقة .

المرأة الغربية بالنسبة لجوليو ويوسف ، امرأة رغبة عابرة أو هدف مغامرة سريعة ، لذلك نرى جوليو يتشدد في كل علاقاته مع نساء تلك البلاد على الطابع الجنسي العابر للعلاقة . وقلما كان يحاول أن يمنح صلته بنسائه شيئا أعمق بمعنى انه كان يمتنع عن فتح نفسه أمام امرأة يعتبرها دخيلة وغريبة ، فهو لذلك يحاول دائما ايجاد الاعذار لتبرير رغباته بهؤلاء النسوة، وفي كل مرة كان يخرج من مغامرته مثقلا بالشعور بالاثم والدنس والخطيئة . فيحاول أن يتطهر بتعذيب نفسه وذلك بتذكر حبيبته البعيدة سعاد بنت الوطن الام التي لها وحدها المكانة الاولى في القلب والنفس . اما الاخريات فجميعهن ليست لهن أية مكانة بالنسبة له . حتى « لوسيا » ، تلك التي أحبها ، سرعان ما تذوي صورتها وتنهار .

تحاط صورة النساء الغربيات في اذهان المهاجرين بهالة من التشكيك وعدم الاحترام الكاملين ، فاغلب تلك النسوة مستهترات فاجرات ، يصف جوليو زبوناته بقوله : « كن يردن السوء ويمهدن له بدلاعة أنثوية مثيرة. وابراز جوانب حساسة من مفاتن أجسادهن » .

أما يوسف فرأيه بهن أكثر تحقيرا واسفافا . نراه يخاطب جوليو في احدى مناقشاتهما الطويلة : « هنا يوجد نساء جميلات وكثيرات بالوقت ذاته . افعل مثلي ، شم عبير الوردة مرة واحدة ، ثم ارمها على الارض ، واذا احتاج الامر دسها بحذائك ... أما قلت لك انها متاع ؟ » .

وهكذا تتفاوت صورة المرأة في « الآفاق البعيدة » بين المرأة الجميلة المغرية الشهية ولكن ذات التعفف والدلال . وبين المرأة الفانية العاهرة . وقلما خرجت من بين صفحات الرواية صورة لامرأة كائن بشري يتمتع بصفات انسانية متعددة أخرى غير صفاته الجنسية . اذ كان الطابع العام لمجمل نساء الرواية العهر والتحلل والفسق . وموقف الرجل منهن هو موقف صائد المغامرات والضحايا . وان استفحل الامر وحلت مصيبة ما ، كما حدث مع دوروتي الفتاة العذراء التي وجدت نفسها حاملا من بطل الرواية ، عندها يماط اللثام عن شرقية متعصبة ضيقة ، نراه يحاول التهرب من طلبها بالزواج بشكل علني والاعتراف بالطفل : « دوروتي أرجوك . حاولي أن تفهميني . كفي عن البكاء . لا تعذبيني . اسمعي : ألا تحبين أباك ؟ لي أب أحبه ولا أستطيع جرح كبرياءه ، ان خبرا كهذا قد يودي بحياته » . وهكذا حفاظا على كبرياء الاب البعيد. يترك جوليو دوروتي ترحل عن البيت حاملة معها طفلها الصغير الى المجهول .

الثروة كانت حلم كل من وطئت قدماه أرض البلاد البعيدة ، المشكلة كانت في ادراك الطريق اليها . ترسم الرواية التخبط والضياع اللذين أحاطا بهؤلاء المهاجرين الذين أدركوا ان ثروة تلك البلاد ليست كمغارة علي بابا ، تفتح أبوابها لنداء المغامرين ، وانما لها أصول ومفاتيح أخرى ... هل حاول أحد من هؤلاء الذين تقدمهم الرواية على صفحاتها أن يكون مغامرا حقيقيا ، أي انه استطاع أن يؤمن بأفكاره وحاول تحقيقها بالاقتراب أكثر من منطق فهم تلك البلاد ونظام

عيشها ؟ نجد ان الاغلبية كانت تؤمن بأن « الشطارة » هي الطريقة الناجحة في الحصول على الثروة ، والشطارة في قاموس المهاجرين وجه آخر للاحتيال الصغير أوالكبير ، فأغلب الرجال الذين تصورهم « الآفاق البعيدة » تجار متجولون صغار يبيعونالبضائع المحلية على انها مستوردة بأسعار غالية ، ويقعون من جهة أخرى فريسة سهلة في يد الممول الذي يحتكر جهودهم ويقيدهم بديون لا يستطيعون ايفاءها . وهكذا يبدو حلم الحصول على الثروة لهاث مجنون مجاني بلا طائل ، قشرة خارجية أخرى لا تبرر وجود هؤلاء الغرباء في تلك الديار التي لم يحاولوا يوما أن يتساءلوا حولها بشكل فعلي ، وانما ظلت معايشتهم جانبية موارية وخارجية ، فسقطت بالتالي في الفشل الذي لا تشكلّ الخسارة المادية سوى وجه من وجوهه المتعددة .

أين تقف الذات من تلك التجربة الجديدة ، وماذا تفعل ، كيف تحيا ، وماذا تريد من نفسها ومن الآخرين؟

أسئلة حاولت أن أرسم لها جوابا من خلال صفحات الرواية ، فلم أحظ سوى بصورة أشخاص يعانون من ازدواجية هائلة بين ما يتحدثون عنه وما يقدمونه على انه هم وبين واقع العيش الذي يعيشونه من جهة أخرى ، وقلما حاول رجال الرواية التوقف عن هذيانهم الكلامي النظري لينظروا فعلا فيما يمارسونه من أساليب عيش وحياة . من هنا تغيب صورة الذات عند هؤلاء الرجال، وتبقى سمات عامة لاشخاص بعضهم مثقف كعارف ، وآخر مستهتر عابث كيوسف ، وثالث يائس كجوليو الخ ... غير ان أحدا منهم لا يكشف عما هو أعمق أو أكثر حلكة وظلاما في داخله ، ولا يبقى من نقاشات هؤلاء الاشخاص عن أنفسهم سوى طنين كلمات ربما تصلح لرسم صورة « الانسان بتفاعله مع البيئة والزمن في كل زمان ومكان » (٢) . ولكن مثل هذا الكلام لا يفتح باب السؤال أو الكشف .

« الآفاق البعيدة » تجربة عاشها مؤلفها وربما عاناها ، كتبها في الستينات ، وخرجت الينا في السبعينات ، كمحاولة تريد أن تقول العالم البعيد الغريب الذي ربما نجحت في نقل بعض زواياه ، لكنها ظلت بعيدة عن تبنينا لها ، ربما لان صاحبها لم يحاول أن يدفع بالتجربة الى ما هو أبعد من السرد العاطفي ، الذي لا يمكن وحده أن يشبع الرغبة في الغوص في عالم تستطيع أن تحوله المخيلة القصصية الى رفقة لا يعوزها الدهشة أو الحماس .

رندة حيدر

---

(٢) جملة ماخوذة من تقديم الغلاف للرواية .

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب